احمد بك شوقي

شاعر الامير

١

شوقي والبوصيري [١]

« البردة وطرازها »

قصيدة البوصيري في مدح نبيّ الاسلام من خير ما جادت به قرائح الشعراء معنًى ومبنًى . وقد توالت الاجيال والقرون على هـذه « البردة » الثمينة ، فلم تبلَ جدتها ، ولم تذهب بهجتها ، بل اكسبتها الايام « جلالَ العتقِ والقدمِ » ولقد شاء احمد بك شوقي ان يُلبسَها طرازاً معلماً فنسج « طراز البردة » بمناسبة عودة سمو امير مصر من حجه المبرور . ولقد كان ذلك يعدُّ — تهجماً — من اي شاعر كان الاّ من امير الشعر . فهو ذو القريحة

---

(١) الشيخ شرف الدين ابو عبد الله محمد البوصيري ولد في ناحية دلاص سنة ٦٠٨ وتوفي في الاسكندرية سنة ٦٩٦

الوقادة والنفَس الطويل، القادر على مجاراة فرسان الشعر في أي ميدان كان. فجاءت قصيدته خير « طرازٍ » يليق ان توشَّى به تلك « البردة » البديعة كما سيرى القارئ من المقارنة بين بعض ابيات هذه وتلك . وقد كان بودنا اثبات القصيدتين برمتهما لولا ضيق المقام

لم تخفَ على شوقي بك وعورةُ هذا المسلك فتنصل قائلاً :

المادحون وأربابُ الهوى تبعٌ (لصاحب البردة) الفيحاءِ ذي القدمِ
اللهُ يشهدُ أني لا أُعارضهُ من ذا يعارضُ صوب العارضِ العرمِ؟

على ان شوقي — رغمَ هذا التنصل الذي قضى به حسن الذوق — قد عارض سلفه ولم يقصّر عنه في اكثر المواقف :

قال البوصيري في الآيات القرآنية

لو ناسبت قدرهُ آياتُه عظماً احيا اسمه حين يُدعى دارس الرممِ
وكلُّ آيٍ اتى الرسلُ الكرامُ بها فانما اتصلت من نوره بهمِ
آياتُ حقٍّ من الرحمن محدثةٌ قديمةٌ صفة الموصوف بالقدمِ
لم تقترن بزمانٍ وهي تخبرنا عن المعادِ وعن عادٍ وعن إرَمِ

وقال شوقي في مثل هذا المعنى :

جاء النبيون بالآياتِ فانصرمت وجئتنا (بحكيمٍ) غيرِ منصرمِ
آياتُه كلما طال الزمانُ بها يزينهنَّ جلالُ العتقِ والقدمِ
يا أفصحَ الناطقين الضادَ قاطبةً (حديثك) الشهدُ عند الذائقِ الفهمِ
حلّيتَ من عطلِ جيدَ الزمان به من كلّ منتثرٍ في حسن منتظمِ
بكل قولٍ كريمٍ أنت قائلهُ تُحيي القلوبَ ويُحيي ميت الهممِ

شريعةٌ لك فجّرتَ العقولَ بها عن زاخرٍ بصنوفِ العلمِ ملتطمِ
يلوحُ حولَ سنا التوحيدِ جوهرُها كالحلي للسيفِ او كالوشي للعَلَمِ

وجاءَ في « البردة » عن وصف العالم عندظهور الدعوة الى الاسلام :

أبانَ مولدُه عن طيب عنصرهِ يا طيبَ مبتدإٍ منه ومختتمِ
يوم تفرّس فيه الفرس انهمُ قد أُنذروا بحلول البؤس والنقمِ
وبات ايوانُ كسرى وهو منصدع كشملِ اصحابِ كسرى غير ملتئمِ

وجاء في « طراز البردة » من بديع الوصف ما نأخذ منه :

اتيتَ والناس فوضى لا تمرُّ بهم الاّ على صنمٍ قد هام في صنمِ
والارض مملوءةٌ جوراً مسخرة لكل طاغيـة في الخلق محتكمِ
مسيطرُ الفرس يبغي في رعيته وقيصرُ الروم من كبرٍ أصمُّ عمي
والخلق يفتكُ اقواهم باضعفهم كالليث بالبهمِ او كالحوت بالبلمِ
أسرى بك الله ليلاً اذ ملائكه والرسلُ في (المسجد الاقصى) على قدمِ
لما خطرتَ به التفوا بسيدهم كالشهب بالبدرِ او كالجندِ بالعلمِ

وهذا المعنى الاخير اخذه شوقي عن البوصيري حيث قال :

فانه شمس فضلٍ هم كواكبها يظهرنَ انوارَها للناس في الظلمِ

وصف صاحب البردة انقشاع غياهب الجهالة امام انوار الرسالة النبوية فقال :

كم جدّلتْ كلماتُ الله من جدلٍ فيه وكم خصَم البرهانُ من خصمِ
كفاك بالعلم في الأميِّ معجزةً في الجاهلية والتأديب في اليتمِ

وتحدّاه صاحبُ « الطراز » فكمّل المعنى بنفي الريب والظنون فقال :

والجهلُ موتٌ فان أُوتيتَ معجزة فابعث من الجهل اوفابعث من الرجمِ
قالوا غزوتَ ورسلُ الله ما بُعثوا لقتل نفسٍ ولا جاءوا لسفكِ دمِ
جهلٌ وتضليل احلامٍ وسَفسفةٌ فتحتَ بالسيفِ بعد الفتح بالقلمِ
لما اتى لك عفواً كلُّ ذي حسب تكفّل السيفُ بالجهالِ والعممِ
والشرّ ان تلقَه بالخيرِ ضقت به ذرعاً وان تلقَه بالسيفِ ينحسمِ

وقال البوصيري واصفاً قتال الاعداء فأبدع في الترشيح في الاستعارة :

راعت قلوب العدى انباء بعثته كنبأةٍ اجفلت غفلاً من الغنمِ
هم الجبالُ فسلْ عنهم مصادمهم ماذا رأى منهمُ في كل مصطدمِ
المصدري البيض حمراً بعدماوردت من العدى كلَّ مسودٍ من اللممِ
والكاتبينِ بسمرِ الخط ما تركت اقلامهم حرفَ جسم غيرَ منعجمِ

وقال شوقي وقد اضاف الى ذلك شيئاً من الفلسفة الاجتماعية :

علمتهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذممِ
دعوتهم لجهادٍ فيه سؤددهم والحربُ اسُّ نظام الكون والامممِ
لولاه لم نرَ للدولات في زمنٍ ما طال من عمدٍ او قرَّ من دعمِ
بالامس مالت عروشٌ واعتلت سررٌ لولا القنابل لم تثلم ولم تصمِ

وجاءَ في « البردة » من مدح الخلفاء ما لا يقارب ما جاء على لسان صاحب « الطراز » حيث قال عن العرب وخلفائهم :

دعْ عنك روما واثينا وما حوتا كل اليواقيت في بغدادَ والتومِ
وخلِّ كسرى وايواناً يدلُّ به هوى على اثر النيران والايمِ
واترك رعمسيسَ إن الملك مظهره في نهضة العدل لا في نهضة (الهرمِ)

دار الشرائع روما كلما ذكرت　　(دار السلام) لها القت يد السلم
ما ضارعتها بياناً عند ملتئم　　ولا حكتها قضاءً عند مختصم
ولا احتوت في طراز من قياصرها　　على رشيدٍ ومأمونٍ ومعتصم
يطأطيء العلماء الهامَ ان نبسوا　　من هيبة العلم لا من هيبة الحكم
ويُمطرون فما في الارض من محل　　ولا بمن بات فوقَ الارض من عدم
خلائف الله جلُّوا عن موازنةٍ　　فلا تقيسنَّ املاك الورى بهم
من في البرية (كالفاروق) معدلة　　و (كابن عبد العزيز) الخاشع الحشم
و (كالامام) اذا ما فضَّ مزدحماً　　بدمعٍ في مآقي القوم مزدحم
او (كابن عفان) والقرآن في يده　　يحنو عليه كما تحنو على الفطم

الى غير ذلك من التاريخ المسبوك باجمل قالب شعري ...

واشار (محمد) البوصيري الى اسمه فقال :

فان لي ذمة منه بتسميتي　　(محمداً) وهو اوفى الخلق بالذمم

واشار (احمد) شوقي الى اسمه ايضاً فقال :

يا (احمدَ) الخير لي جاه بتسميتي　　وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

وهناك ايضاً معان كثيرة نسج عليها الشاعران ابياتاً شائقة كنا نود ذكرها لنبين مجرى الافكار من جيل الى جيل ، ولكن في ما تقدم كفاية لاطلاع القراء على طريقة شاعر الامس وشاعر اليوم ، فيرون ان « طراز » شوقي كان « لبردة » البوصيري « كالحلي للسيف او كالوشي للعلم »